اللجنة الشعبية الدولية لجائزة القذافي
لحقوق الإنسان 1995

أحمد بن بلة : مسيرة نضال.



اللجنة الشعبية الدولية لجائزة القذافي
لحقوق الإنسان 1995

أحمد بن بلة مسيرة نضال

إسماعيل القروي — محمد عياد — محمد سبيلا

منشورات المؤسسة العربية للنشر والإبداع



تكريم أحمد بن بلة بإسناد جائزة القذافي

له لعام 95 مشاركة مع جوستاجوميز



إن جائزة القذافي التي استحدثت عام 1988 بعد إقرار الوثيقة الخضراء الكبرى لحقوق الإنسان في عصر الجماهير، جائزة عالمية انطلقت مبادرتها من أرض الجماهيرية لكن مسؤوليتها تتولاها كاملة لجنة شعبية دولية تتكون من عدد من الأساتذة والمناضلين من مختلف أنحاء العالم ولا يرجع في إسنادها إلى نظام المؤسسة الأساسي، وهي منظمة شعبية غير حكومية لا تتبع لأي جهة. وقد تم تأسيس مقر لها بجنيف تحت اسم جمعية شمال جنوب 21 وحظيت بالعضوية الاستشارية بالأمم المتحدة.

وكما هو معروف، فأن أول جائزة أسندت للمناضل "نيلسون مانديلا" الذي كان وقتها في السجن لأكثر من 25 عاماً تحت حكم الميز العنصري.

وقد شقت هذه الجائزة طريقا غير مسبوق بتكريم المناضلين وإعلاء شأن القضايا العادلة، فكانت الجائزة الثانية لأطفال الحجارة، والثالثة لقضية الهنود الحمر والرابعة لمقاومة مرض نقص المناعة والخامسة لأطفال لبوسنة والسادسة للاتحاد الإفريقي لحقوق الانسان عام 1994.

وفي ضوء ما يمر به العالم من تغيرات وما أصاب قضية التحرر الوطني والسيادة ومقاومة الإمبريالية من ضعف وما تحاول الدوائر المعادية إلحاقه من تجاوز وتهوين لإلحاق الهزيمة بالمشروع التحرري على الصعيد العالمي، فقد رأت لجنة الترشيحات التي تلقت 45 ترشيحا بين شخصية وقضية أن تخصص جائزة هذا العام لمناضلين أحدهما يرمز للجنوب والآخر للشمال ووقع الاختيار على الرئيسين:

أحمد بن بلة وجو سناجوفيز وذلك لدورهما في تحرير بلديهما من الاستعمار والفاشية والجهود التي ما فتىء يبذلانها من خلال الحوار على المستوى القومي والعالمي من أجل نصرة قضايا الحرية والسلام وحقوق الإنسان، والدفاع عن هذه القيم والمحافظة على العلاقات بين شعوب الشمال والجنوب، وفي هذا المقام يجدر التنويه بملاحظتين :

الأولى: أن هذا الاختيار لا علاقة له بالأوضاع الداخلية في بلد الشخص المكرم.

الثانية: لا يعني أن من كرم يختص لوحده بالدفاع عن تلك

القيم فلاشك أنه أحد الرموز التي ينبغي أن تكرم وفي ذلك تكريم للقيم النضالية ولكل المناضلين على اتساع العالم.

وفيما يخص الرئيس أحمد بن بلة فإن قيمته النضالية ليست محل تقييم ودوره في الكفاح الوطني والقومي والعالمي صفحات يشهد بها التاريخ، وفي تكريمه تكريم لكفاح الشعب الجزائري البطل ولكل المناضلين على اتساع الوطن العربي والعالم.

ورأينا تقديم هذا الكراس المقتبس من بعض الأدبيات التي أرخت لحياة الرئيس أحمد بن بلة فنأمل أن تكون موفية بغرض التقديم لشخصية أشهر من أن تعرف.

عمر الحامدي
أمين عام اللجنة الشعبية الدولية
لجائزة القذافي لحقوق الإنسان



أحمد بن بلة :
مسيرة نضال



مولده وطفولته وصباه

في الخامس والعشرين من شهر الكانون «ديسمبر» 1918م. بقرية **«مغنية»** وهي قرية صغيرة في نواحي **وهران**، كان مولد السيد **«أحمد بن بلة»** لأسرة فلاحية فقيرة تتكون من **الوالدة** -لازالت على قيد الحياة- وأربعة إخوة هم **«عمر»** و **«عبد القادر»** الملقب بـ **«قويدر»** و **«وسيني»** سمّى على أحد أولياء الجزائر و **«رحال»** رحل هؤلاء الإخوة جميعا عن الدنيا.

وقد كان **والده** يمارس تجارة صغيرة في القرية نفسها تعينه على إعالة الأسرة ومواجهة ظروف الحياة التي كانت قاسية تحت نير الاحتلال الفرنسي، ولم يمارس الفلاحة رغم امتلاكه لقطعة أرض مساحتها 30 هكتاراً على بعد 30 كيلو متراً من قرية **مغنية** لأنها جذباء وغير قابلة للاستصلاح بسبب نذرة المياه في المنطقة.

بدأ وعي **أحمد بن بلة** يتفتح على عالمه الخارجي البسيط في قريته حيث عاش معظم طفولته المبكرة والتحق بالمدرسة الابتدائية

للتحصيل العلمي والمعرفة حتى حصل على الشهادة الابتدائية، ورغبة منه في مواصلة التعليم ترك قريته متوجهاً لمدينة «**تلمسان**» في رعاية واستضافة صديق لوالده.

في هذه المدينة بدأ يتعرف على ملامح عالم آخر مغاير تماماً لعالم القرية البسيط حيث التمييز العنصري يزداد حدة ويتفاقم بين الجزائريين والمستعمرين الفرنسيين، فقد كان الفرنسيون يمارسون أبشع أنواع الذل والهوان والقهر على المواطنين في **تلمسان** ويمتد القهر فيشمل كافة مرافق الحياة الإدارة والمدرسة والشارع وكانت المدرسة التي يتعلم فيها تعاني أفضع صنوف التمييز والتغريب بين التلاميذ الجزائريين والفرنسيين.

في هذا العالم الجديد عالم المدينة والاستعمار، بدأ يتشكل وعيه في معاداة الاستعمار الفرنسي الذي اغتصب منه الأرض والعرض وبدأت تضيق به رحابة الوطن، وتشتد به وطأة الغربة في بلاده فالمستعمر الغريب لوطنه مواطن، والمواطن الجزائري في وطنه غريب. ففي الرابعة عشرة من عمره وفي المدرسة التكميلية حين كان يستمع إلى أحد المدرسين الفرنسيين ويدعى **بن افيديس** وكان منتميا إلى جمعية تعتقد في عودة المسيح، وكان يلقي درسه على التلاميذ وفي سياق حديثه تهجم على الإسلام والمسلمين، وتطاول على النبي محمد صلى لله عليه وسلم، ووجه كلامه إلى التلاميذ العرب في الفصل قائلا: «إن نبيكم محمد كذّاب».

اكفهر وجه **بن بلة** فانتفض غاضباً، وكان رد فعله فوريا وحاداً فخاطب معلّمه في لهجة عنيفة فيها استخفاف وتقريع قائلا: يمكنك أن تقول ما يحلو لك هنا، في هذا الفصل فنحن أطفال صغار وتلاميذك أيضا جئنا لنتعلم منك المعرفة والفضيلة والأخلاق، ولكن يجب أن تعلم جيداً أننا لا نتعلم ولا نقبل من أحد مهما كان أن يزحزحنا عن ديننا، ويشكك في عقيدتنا وينال من نبينا، فديننا مقدس عندنا، ونبينا منزه عن كل تكذيب وتحقير.

لقد كان لهذا الموقف أثر عميق في نفسه، فإلى جانب ما ناله من عقاب بالحرمان من الدراسة والتهديد بالطرد من المدرسة، فإن مشاعر الألم والإحساس بالظلم تركا في نفسه جرحاً عميقا ظل يلازمه حتى الآن، ولم ينس هذا الحدث فقد حفر في ذاكرته وكأنه حدث لتوه، وخاصة أن أثر الصدمة كان عنيفاً فلازم الفراش خمسة عشر يوماً لم يذهب فيها إلى المدرسة.

ما أكثر مثل هذه المواقف التي توالت عليه تباعاً، وربما كانت أكثر قسوة وإيلاماً يعيشها كل يوم في المدرسة والشارع وفي كل مكان، فكانت تنمى في وجدانه الثورة على الظلم والاضطهاد وبدأت تتشكل في وعيه مفاهيم النضال والتحرر.

عامان مرّا عليه في **«تلمسان»** قضاهما في صراع مرير. لم تستوعبه هذه المدينة، ولم ينسجم مع عالمها المتناقض المستعمِر يتحكم في كل شيء والمستعمَر يتنازل عن كل الأشياء، فلم يعد

ذلك التلميذ الطيب المسالم كما كان في **مغنية**، فأصبح في يقينه أن الاستعمار لا يمكن مواجهته بالطيبوبة والمسالمة ولكن بالثورة والعنف، وزاد في حدة ثورته وغضبه، فراقه لأسرته، وسوء أحوال **صديق والده** المادية إذ تعرض لهزة مالية وصلت به إلى حد الإفلاس، وكان يعتقد جازماً أن حالة صديق والده مرجعها إلى الاستعمار الفرنسي رغم أن هذا **الصديق** الشهم استمر في رعاية **أحمد بن بلة** في صبر وصمت وكبرياء يستحق عليها الثناء والتقدير.

لم يكن أمام **أحمد بن بلة** ما يلهيه عن هذا الوضع المزري وينسيه هذه الحياة القاسية سوى الرياضة، والتي مارسها بحماس فائق وموهبة فذة، وبشكل خاص كرة القدم، فلعب مع صفوف فريقه في خط الوسط، وهذا الموقع يمكنه من القيام بمهمتين في آن واحد الدفاع والهجوم، تحصين الدفاع وتموين الهجوم، ومن هذا الموقع تعلم فيما بعد أساليب النضال، والتكتيك متى يدافع ومتى يهجم.

عندما بلغ ستة عشر ربيعاً في سنة 1934 تقدم لأداء امتحان «البروفيه» ولم يكن موفقا في هذا الامتحان وخاصة بعد أن تكالبت عليه الظروف والصعاب فازدادت أحوال صديق العائلة سوءاً، ولم يكن أمامه خيار إلاّ العودة إلى قريته والبحث عن عمل، وقد تمكن من الحصول عليه في **الشركة الاحتياطية** مع

استمراره في مزاولة الرياضة، وفي هذه الفترة أيضا تطوع للتدريب العسكري، وانخرط في العمل السياسي، فقد اتصل **بالاتحاد الوطني للمسلمين بشمال افريقيا** الذي سيتحول في سنة 1937 إلى **حزب الشعب الجزائري**، الذي استطاع أن يستقطب العديد من الجزائريين الرافضين للواقع الاستعماري وعدم القبول به كضرورة فرضتها الظروف، فكان من بين هؤلاء **«عبد القادر بن بركة»** والذي تعلم منه أحمد بن بلة دروساً في الوطنية والجهاد ».

الخدمة العسكرية

في سنة 1937 تم استدعاؤه للخدمة العسكرية، ونُسِّب لفيلق المشاة الجبليين 141 في **مرسيليا**، وكان مقر الفيلق في معسكر بثكنة **القديس شارل** قرب المحطة التي تحمل هذا الاسم، وكان الفيلق يضم جنوداً فرنسيين وجزائريين، أمّا الضباط فكلهم فرنسيون.

قام **أحمد بن بلة** بواجبه العسكري على أحسن ما يرام وبانضباطية عالية فكان مثالاً للجندي المتفاني في أداء خدمته، وحظي بالمكانة الأولى في الترتيب، حتى تحصل على رتبة رقيب وتحت إمرته جنود فرنسيون وجزائريون ساوى بينهم في المعاملة ولم يمارس التمييز الذي عانى منه كثيرا.

كان من المفترض أن يترك الخدمة العسكرية في سنة 1939

ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية أجلّ تسريحه فاحتفظ بموقعه العسكري والرياضي في فرنسا فإلى جانب عمله العسكري انخرط في صفوف نادي **شاتو نومبير** كلاعب وسط، ثم انتقل إلى نادي **مرسيليا للألعاب الأولمبية**.

في صائفة 1940 شنّت طائرات **شتوكا** الألمانية غارات جوية عنيفة على **مرسيليا** وبشكل خاص على التكنات العسكرية فألقت بحممها وقنابلها على المعسكر الذي ينخرط فيه **أحمد بن بلة** وألحقت به أضراراً فادحة ففر جميع الجنود الذين كانوا معه وبقي هو صامداً مع مدفعه، استمر القصف في اليوم التالي، واستطاع **أحمد بن بلة** أن يقاوم ببسالة ونجح مع بعض رفقائه في إسقاط العديد من الطائرات المغيرة، فكان صموده وبسالته محط تقدير وإعجاب من رؤسائه، ولذلك فقد تقرر منحه وسام الحرب.

عند تقليده الوسام، انتابه شعور بالمرارة والخيبة، وتناقض ينازعه بين الوطن والاستعمار، فها هو يرتدي البزة العسكرية الفرنسية وهي البزة نفسها التي يرتديها العسكري الفرنسي الذي يستعمر بلاده، وها هو يساهم بجهده وحياته في تحرير فرنسا التي تستعمر وطنه الجزائر وتحول عشرة ملايين من الجزائريين إلى فقراء ومرضى وعبيد وهم الذين عرضوا حياتهم للموت من أجل فرنسا في حربها ضد النازية، هذا الموقف جدد الجرح في أعماقه وحرك كوامن الثورة في نبضه.

في العام سنة (1940) سرح من الخدمة العسكرية، وفي

الوقت نفسه تلقى عروضا من أندية مختلفة لاحتراف لعبة كرة القدم، ورغم أن العروض كانت مغرية من الناحية المادية إلاّ أن نداء الوطن كان أقوى من كل المغريات ومن النجاح الفردي، فقرر العودة إلى قريته **«مغنية»** التي وجدها قد تأثرت كثيراً بالحرب التي خلفت وراءها الكوارث والمصائب فعمَّ فيها الفقر والبؤس والمرض، هد المرض أخاه قويدر حتى الموت وتبعه إخوته عمر ورحّال ووسيني وأبوه.

حملة إيطاليا والعودة إلى العسكرية

كانت سلطة الماريشال «بيتان» تمارس أبشع صنوف الاضطهاد والإرهاب من عام 1940 حتى 1943 حينما بدأت الحملة على إيطاليا، ووقتها تم استدعاؤه للخدمة العسكرية مرة ثانية، ونسّب في هذه المرة إلى الفيلق السادس للمدفعية الجزائرية **بتلمسان،** وكان الخلاف على أشده بين الضباط الجزائريين والضباط الفرنسيين حيث يمارس الفرنسيون أبشع أنواع التميز العنصري على الجزائريين، وقد استطاع **أحمد بن بلة** أن يقود مقاومة ضد الميز العنصري في هذا المعسكر، وإثر ذلك تم نقله إلى الفيلق الخامس للمدفعية المغربية، وكان جميع جنود الفيلق مغاربة وكان الجزائري الوحيد بينهم يجمعهم الدم الواحد والمصير المشترك الواحد، الاستعمار والتحرر، وهنا بدأ يتشكل وعيه القومي بأن إرادة التحرر من الاستعمار لابد أن تكون إرادة عربية واحدة لكل

الأمة العربية التي تخضع لنير الاستعمار. وفي هذا الفيلق ألحق بسرية النقيب **«دوفيلركور»** وكان النقيب على معرفة ودراية تامتين بميول **أحمد بن بلة** المعادية للفاشية فعينه في فصيل المساعد **«الفونسي»** وتولى قيادة فرقة في هذا الفصيل كان معظم جنوده من المغاربة.

وفي سنة 1943 في شهر الكانون «ديسمبر» حل الفيلق الخامس **بنابولي** وبمجرد دخوله المدينة كانت أسراب من طائرات شتوكا تقصف المدينةوبشكل عشوائي وغير مركز فلم تكن أضرار القصف فادحة وكانت الخسائر قليلة، وتحسباً لأي طارىء فقد سير قائد الفيلق دوريات استطلاعية مكثفة، ولم يكن في علمه أن المنطقة مزروعة بالألغام ولمجرد تحرك إحدى الدوريات وعلى بعد 30 متراً فقط من المعسكر مزّق لغم جسد أحد الجنود برتبة عريف، فأمر القائد ثلاثين متطوعاً لإحضار الجثة وكان على رأسهم **أحمد بن بلة،** وتم قطع مسافة ثلاثين متراً عبر الألغام والمتفجرات في ساعتين من التوتر والترقب بين الحياة والموت.

رغم أن الإيطاليين كانوا على اتفاق سري مع الأمريكان بألاّ يسمحوا للفرنسيين بالدخول إلى إيطاليا، ولم يكن في تقديرهم أن ديغول كان يعول كثيراً على مساهمة قواته في تحرير أوروبا، إلاّ أن الألمان كانوا يدركون أن شيئا ما قد تغير في قطاع مونتانو، فكان حدسهم صائبا، فقد تمكن الفيلق الخامس للمدفعية المغربية

من تحرير **جزر كورسيكا** وفرض تواجده في إيطاليا. وتمكن أيضا في 12 اي النار (يناير) 1944 من الهجوم على «سيلفا» وتعقب فلول الألمان بعد أن قضَّ مضاجع النازية والفاشية في إيطاليا.

في 20 أي النار «يناير» 1944 وفي معركة شديدة الضراوة شن الفيلق الخامس هجوما عنيفا على **«سانتا كروس»** وتمكن من أسر العديد من الجنود في **مونتادز** و **سيلفا**، وفي هذه الآونة لازم النقيب **(فيلوكور)** المستشفى إثر إصابته في إحدى المعارك وآلت القيادة إلى ألزاسي يدعى (Z) وكان عنصريا فاشيا في تصرفاته ولم يعامل المغاربة بإنسانية الأمر الذي جعل **أحمد بن بلة** يغتاظ من فعله المشين فلفت نظره إلى أن هؤلاء الجنود يضحون بحياتهم من أجل فرنسا فلا يجب أن يعاملوا هذه المعاملة السيئة. لم يتحمل (Z) أن يلقنه جندي عربي درساً في الأخلاق فتقدم بشكاية ضده إلى قائد الفيلق (فيلوكور) وكتب تقريراً يصفه بأنه مهرج ويحرض الجنود المغاربة ضده وبالتالي فهو لا يستحق الأوسمة التي تقلدها، استدعى **فيلوكور أحمد بن بلة** وبعد الاستماع إليه أنصفه وأعاده إلى وحدته، بل كلفه أن يقوم مقامه ببعض المهمات كما تم تنحية (Z).

سرّح من العسكرية وفي حوزته أربعة استحقاقات اثنان من نوع وسام الجيش واثنان من وسام الحرب قلّده أحدهما **ديغول** في احتفال عسكري مشهود، وكذلك مرض عرق النسا بسبب الجليد

الذي كانت أكثر المعارك تدور رحاها فوقه.

الثورة

وضعت الحرب أوزارها وانتهت بانتصار الحلفاء على المحور فعاد إلى قريته ليتخذ مساراً جديداً في النضال والثورة، فبعد أن كان مقاتلاً في صفوف الجيش الفرنسي يساهم في تحرير فرنسا وأوروبا فلابد أن يعود مقاتلا ومناضلاً من أجل بلاده ويحررها من الاستعمار.

ترك قريته بعد أن واجهته صعاب كثيرة متوجهاً إلى الجزائر العاصمة، وفي سنة 1947 اتخذا قراراً لا رجعة فيه "النضال ضد المستعمر "فأصبح مناضلاً سرياً يقوم بمهمة في غاية الخطورة، التبشير بالثورة والتحريض عليها وأينما حل في قرى ومدن الجزائر يلتف حوله المجاهدون حتى كاد أن يكشف أمره في شهر النوار «فبراير» 1950 ونجح في التخلص من الكمين بأعجوبة، وبعد مرور شهر على الحادثة تم اعتقاله من طرف الشرطة الفرنسية وحوكم بعقوبة السجن لمدة ثمانية أعوام نافذة، وتمكن من الهروب من السجن بعد أن مكنه صديقه **أبو ديه الصافي** بمبرد حديد دسه في رغيف من الخبز استطاع به مع بعض زملائه قطع قضبان نافذة السجن المطلة على ساحة كبيرة فاستطاع النفاذ منها والهروب إلى **مرسيليا** بأوراق مزورة تركها بعد ذلك، وفي سنة 1953 متوجها

إلى مصر وفي سنة 1954 بدأ التخطيط لاندلاع الثورة حيث كان اجتماع قادة المنظمة الخاصة في **سويسرا**، وفي نوفمبر من هذا العام بدأ فتيل الثورة يشتعل بقطع عتيقة من البنادق الإيطالية وصلت من **ليبيا** لم تتجاوز 398 قطعة تم تهريبها إلى **بسكرة**.

كما كانت مهمته في الداخل التحريض على الثورة والقتال وتنظيم صفوف المجاهدين، فأن مهمته في الخارج جمع السلاح وتسليمه للمجاهدين في الداخل، وبدأت نار الثورة تسري في كل مكان، في قرى وضفاف ودروب وجبال ومدن الجزائر، والجماهير تزداد التحاقا بها ورياحها تقلع جذور الاستعمار الفرنسي التي انغرست عميقا في تراب الجزائر خلال عشرات السنين، وفي أوج عظمة وتنامي الثورة كان **بن بلة** يتنقل بين عواصم الوطن العربي والعالم بين القاهرة وطرابلس وتونس وتطوان ومدريد وروما، وفي كل مكان يحل به يتربص به الموت، ففي سنة 1956 تعرض لمحاولة اغتيال في طرابلس بفندق اكسيلسيور «غرناطة» حاليا، وفي إحدى جولاته تعرضت طائرته للاختطاف فوجهت سراً إلى الجزائر، وتم اعتقاله وبعد عشرة أيام أدخل سجن **«لاسانتي»** حيث قضى فيه ست سنوات وفي ربيع 1959 نفاه **ديغول** إلى جزيرة **(اكس)** وتعددت به المنافي فآخر منفاه كان في **«اولقوا»** ومنه تابع مفاوضات **«افيان»** وبعد سراحه توجه إلى **سويسرا** حيث التقى بالحكومة الجزائرية المؤقتة ومنها سافر إلى **بغداد** مع رفاقه الذين استقر بهم المقام فيما بعد **بتونس** حيث مقر الحكومة المؤقتة التي

تمكنت من الحصول على تأييد واعتراف العديد من الدول، وفي **تونس** تعرض لمحاولة اعتقال سببها خلاف نشب بين الرفاق، سافر بعدها إلى **طرابلس** ثم **القاهرة** حيث التقى بالزعيم **جمال عبد الناصر** الذي أيده كثيرا وناصر الثورة الجزائرية بكل قوة وصلابة.

من الثورة والمنفى إلى العودة والاستقلال.

كان النضال من أجل تحرير الجزائر نضالاً مريراً وغاليا، وكان انتصار الثورة انتصاراً ساحقا، قوامه مليون شهيد جزائري استشهدوا وقوفا أمام الآلة العسكرية الفرنسية الحديثة، وامتدت رياح الثورة الجزائرية إلى كل أرجاء العالم، في **فلسطين وبوليفيا وكوبا** و**انجولا** و**فيتنام** وغيرها كثير.

انتصار الثورة الجزائرية توج بعودة المناضل أحمد بن بلة من المغرب وعن طريق وجدة دخل الجزائر المحررّة، ومروراً بقريته مغنية التي شهدت مولده من جديد وتلمسان مرتع الصبا وإرهاصات الثورة، وفي كل مكان من أنحاء الجزائر، استقبل استقبال الفاتحين العظام وشرع لتوه في تنظيم الانتخابات العامة على كامل التراب الجزائري في 15 الفاتح سبتمبر وفي 27 من الشهر نفسه شكل حكومته وبعدها سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لحضور اجتماعات الأمم المتحدة بالاعتراف بالجزائر دولة مستقلة عضوا في هيئة الأمم المتحدة، بعدها شرع في تأسيس هياكل الدولة

ومؤسساتها فكان أول رئيس جمهورية في عهد الجزائر المستقلة.

هذه مسيرة نضالية لرجل كرس حياته للنضال والثورة قدمناها باختصار وسنسلط الضوء على حياة هذ الثائر في فصول هذا التعريف.

لقد استحق المناضل أحمد بن بلة عن جدارة جائزة القذافي لحقوق الإنسان لعام 1995 فمسيرة هذا الرجل تزخر بالمواقف النضالية الثابتة وبالمبادىء الثورية الراسخة.



أحمد بن بلة
الإنسان والحرية



ليس الحديث عن الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية مجرد اهتمام ثقافي عند المناضل أحمد بن بلّة، بل هو نوع من الإسهام في الصراع السياسي والفكري الدائر، إذ ليس المهم هو تحليل هذه المفاهيم والبحث عن مصادرها في الفكر الغربي أو في التراث العربي الإسلامي، بل المهم الوصول إلى استخلاص بعض الملامح الأساسية والثوابت والمتغيرات التي تحكم النضال من أجل الديمقراطية والعوائق التي تفعل وتؤثر في ذلك النضال سلباً وإيجاباً، ومن منطلق الاعتقاد بأن هذا النضال ليس بدعة وليس جديداً في تجربة الحركة التاريخية للأمة العربية والعالم الثالث والإنسانية جمعاء -بل إن التاريخ يختزن تراكمات غنية في هذا المجال.

فحركة حقوق الإنسان تستمد مشروعيتها من شروط الديمقراطية في الوطن العربي والعالم، وهو ما يعبر عنه عادة بمحنة الديمقراطية حيث تعمد السلطة إلى غزو منظم للمجتمع وتقوم بتجريده من كل أدوات المقاومة.

ومما لاشك فيه أن الإنسان الحر هو أساس المجتمع وهو بناؤه المقتدر، ومن هنا كان منطلق الحرية من فكر بن بلّة، فيعتقد أنه لا حرية للفرد بغير تحريره أولاً من الاستغلال، وأن الطبقة العاملة لا يمكن أن تساق بالسخرة إلى تحقيق أهداف الإنتاج، والطاقات المبدعة للشعوب تستطيع أن تصنع الغد دون أن تساق إليه بحمامات الدم الجماعية.

وأن الإنسان لا يمكن أن يكون حرا إلاّ إذا امتلك قوته فمن يمتلك قوت الإنسان يرتهن حريته، كما أن حرية الإنسان لا تكتمل إلاّ بتحرره من الهيمنة والتبعية للإمبريالية والصهيونية والغرب، وأن الحرية ليست شعارات بقدر ما هي ممارسة، وأن حرية الإنسان لا تكتمل إلاّ إذا تحرر في أعماقه وناضل من أجلها، فالحرية لا توهب بقدر ما تؤخذ، فلا يكفيه العبد أن يتغنى ويهتف للحرية وهو مقيد بالأصفاد ولكن لابد أن ينطلق في فضاءات من الحرية تخلو من القهر والتسلط والاستغلال والخوف والجوع.

لقد كانت صرخة الناضل أحمد بن بلّة للعالم في دعوته له لأن يبتدع عالماً جديدا لا وجود فيه للاستغلال والقهر. عالماً قادراً على إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل الأساسية الراهنة.

* مشاكل التنمية، على أن تحل بصورة يولى فيها الإنسان العناية الفائقة ضمن كل نابض خاص بالإسلام، ويحافظ فيها على الطبيعة، أي أن تسير التنمية والمحافظة على البيئة جنبا إلى جنب.

* مسألة الجوع المتفاقمة بفعل الانفجار السكاني في العالم الثالث، هذا العالم سيتجاوز عدد سكانه عام 2000 خمسة مليارات من أصل ستة مليارات ونصف مليار سيبلغها سكان العالم.

* مشاكل العنصرية والإمبريالية.

* وأخيراً مسألة الثقافة المتصلة بابتكار معرفة وعلم وتقنية تسهل تحقيق الأهداف، تعرف حق المعرفة أن العلم والمعرفة يحملان مقولات، أهمها الاستغلال، وباعتبارهما السلاح الأكثر مكراً، فقد نابا عن سياسة المدفع في ربطنا بعجلة الاستعمار، إن ابتداع عالم جديد يعني ابتداع علم وتقنية جديدين يلائمان الأهداف الجديدة، فللحضارة الجديدة أدواتها الجديدة. (آراء ومواقف 41).

أمّا ترجمة هذا المشروع فيفكر أحمد بن بلة تتم وفق المعايير والأسس التالية :

• مقاومة الإمبريالية والصهيونية.

لقد كان هاجس الحرية عند بن بلة لا يكتمل إلاّ بالديمقراطية، ولا تتحقق الديمقراطية على أرض الواقع إلاّ بالقضاء واقتلاع جذور

الإمبريالية والصهيونية، وقد كان يؤكد دوماً أن كيفية استئصال الإمبريالية لا تتمّ إلاّ باستئصالها من أعماقنا ومن قلوبنا، «لأن الإمبريالية والصهيونية لن تجدا مكاناً أفضل من أعماقنا وقلوبنا لكي تستقرا فيه، فهما قد استوطنتا ذواتنا قبل أن تحلاّ بفلسطين أو بما يمثل الآن التعبير الأرقى للإمبريالية، أعني الولايات المتحدة الأمريكية، هاتان النبتتان السامتان تمتصان غذاءهما من دماء قلوبنا فتنموان وتكبران على ما في نفوسنا من نفايات وقاذورات، ولو قطعنا عنهما شريان الحياة لذبلتا وتلاشتا جميعا» آراء ومواقف ص 8.

فالتحرر يبدأ من الوعي أولاً ومن الذات الإنسانية ثانيا؛ فلا بد أن يثور الإنسان على نفسه، فيتغلب على الخوف والتبعية والقهر والاستلاب ويتحرر من واقعه المريض المتخلف، ولابد أن يقاتل العدو المتربص به في أعماقه، وأن يحصن نفسه ضد أساليب الإمبرالية والصهيونية اللتين يمكن أن تعودا في أي وقت وفي صورة جديدة ومظاهر أخرى ولكنهما دائما بوجه واحد وإن تبدل القناع، فحقيقة الإمبريالية والصهيونية تكمن في معناها المجرد «السيطرة والتسلط»، وتعد الولايات المتحدة الأمريكية اليوم الدولة التي تقف على رأس الإمبريالية الجديدة مستخدمة برنامجاً جديداً يرتكز على ما تسميه بالنظام العالمي الجديد القائم على التخطيط الدقيق والمنظم للآليات والوسائل، وعلى حسابات الوضع الدولي والتفاعلات السياسية والمتغيرات الدولية، وسخرت لكل

ذلك منجزات الصناعة والفكر والإعلام والاقتصاد والتقنية الحديثة من أجل الوصول إلى غاياتها.

يؤكد المناضل أحمد بن بلة «بأن العدو لابد في أعماقنا، متربص للوثوب علينا من جديد، يجب مطاردته أينما كان، في وجداننا وفي بنانا الذهنية، في نظمنا السياسية التي هي أيضا دخائل أجنبية، يجب الانكباب على هذه المسائل دون إبطاء، ففي حلّها حل للمسائل الأخرى» آراء ومواقف ص 49.

إن أول شرط من شروط التخلص من الإمبريالية عند بن بلّة تكمن في إعادة بناء الدولة والنظام السياسي، وكذلك إعادة بناء الإنسان، وهذا البناء يجب أن يتم وفق مقومات التراث الخاص بكل أمّة، وحسب المفاهيم والدلالات التي تميز شخصية الأمة، وكلما كانت الأمة عريقة وشديدة العراقة وتضرب جذورها الحضارية عميقا في تراب التاريخ، لابد أن تستلهم من عراقتها ودينها وأصالتها ما يلهمها للتصدي للإمبريالية والصهيونية، وأن يستبسل شعبها في الدفاع عن أرضها وكيانها، أمّا ذوبان شخصية الأمة وخصائصها الحضارية في النموذج الإمبريالي الغربي يفقدها خصوصيتها ويسهل اجتثاثها.

فكان يرى أحمد بن بلّة «أن بناء الدول والنظم وكذلك الإنسان يمر عبر إعادة تركيب مقومات وجودنا وشخصيتنا ومكوناتنا الثقافية، ومن هنا تبرز الحاجة إلى مسعى يخلصنا أولاً من أصناف المكونات المنقولة إلينا بواسطةالنموذج الغربي، ويمكننا

ثانيا من إطلاق مكوناتنا القائمة على بُنانا الذهنية الخاصة التي تصوغ مفاهيمها ودلالاتها الخاصة، تلك المفاهيم والدلالات التي تساعد على إبراز معالم نموذج حضاري جديد، ومعنى جديد لحياتنا، ويساعد معناها الجديد هذا الآخرين على تحديد نماذجهم الخاصة، ومعنى حياتهم الجديد» آراء ومواقف ص 49.

نستخلص من ذلك أن الانسلاخ عن الإمبريالية والصهيونية واقتلاع جذورها في فكر بن بلّة لا يتم بمواجهتها ومقاومتها مباشرة قبل بناء الإنسان وبناء الدولة وبناء النظام بناء سليما وبحلول جذرية شاملة لا يمكن أن تفصل فيها المعركة ضد الإمبريالية والصهيونية عن المعركة من أجل الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية، وتثوير الواقع وتنوير المستقبل منهجاً وأسلوبا، هو الشرط الأساسي لبداية مسيرة الحرية والديمقراطية التي بها يمكن المواجهة والصمود، وكذلك لابد من تأسيس مشروع حضاري جديد للأمة العربية يتم فيه إخضاع محيطها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي لخلق التواصل والتمازج بين الأصالة والحداثة في قالب عصري متفتح على العالم، وفي إطار من الديمقراطية والحرية التي هي أداة الإنسان في تحرير الأرض والثقافة والمجتمع والاقتصاد، فإن تحقيق التقدم الحضاري الذي لا تتناقض فيه الوطنية مع القومية ولا القومية مع الدين، ولا الاشتراكية مع الديمقراطية، يتم وفق رؤية عربية تحدد معالم عصرية للأمة العربية لا تفقد فيها ذاتيتها بالانغلاق أو الذوبان، وإنما تواكب العصر

وتشارك في عطائه من موقعها القومي والحضاري المستقل والمتصل في أن يركب الحضارة الإنسانية، ولابد من تثوير الطريق النضالي للجماهير أولى مراحل المقاومة لمنهج الإمبريالية والصهيونية.

• مقاومة الاستغلال والتبعية.

لقد تلازمت مع الأنظمة الدكتاتورية والإمبريالية والصهيونية ظاهرة القمع والاستبداد، وإهدار الحقوق الأساسية للإنسان، فمورست ضده أبشع أساليب القهر والطغيان، وفي غياب الحرية والديمقراطية كانت قوى الاستغلال الاجتماعية من عملاء الاحتكارات الأجنبية والطبقات التي تستنزف ثروات الوطن ودماء رجاله ونسائه من القوى المنتجة مخلفة بؤراً للرشوة والفساد تستشرى في كل مكان، وبالتالي أصبحت قوى الاستغلال ركيزة أساسية للاستعمار الجديد على كافة الأصعدة الاقتصادية والاستراتيجية وماتزال نافذة رئيسية مفتوحة على مصراعيها لكل مظاهر الاستغلال.

إن قضية الحرية في فكر المناضل أحمد بن بلّة لا تكتمل في مفهومها مادام الإنسان يعاني من النهب والاستغلال، وبالتالي فإن قضية الاستغلال هي القضية المركزية التي تشكل عائقا في تحقيق

الحرية، وقد أخفق النظام الغربي في الوصول إلى حل هذه المعضلة لأنه لم يجد حلاً كاملاً لها، ولكن مأساتنا، ولنقلها صراحة، بدأت في وقت مبكر عندما ظهر هذ الاستغلال في صلب نظامنا نحن في نهاية خلافة عثمان» آراء ومواقف ص 22.

فالمشكلة المركزية إذن، والتي تقف حجر عثرة أمام مسيرة التقدم وبناء الإنسان والحرية والديمقراطية في رأي بن بلّة، هي مشكلة الاستغلال التي يتحمل مسؤوليتها النظام السياسي ونكبتنا نحن في نظامنا السياسي الذي شهد تراكما في الاستغلال منذ خلافة عثمان حتى وقتنا، والتي تعهدت فيه أجهزة الدولة والنظام القمعية القيام بدور الاستغلال في أبشع صوره، فالاستغلال الواقع على الإنسان العربي مركب، استغلال في الداخل من النظام وأجهزته وقوى الاستغلال الاجتماعية من عملاء الاحتكارات الأجنبية، واستغلال من الخارج، ومما لاشك فيه أن النموذج الإمبريالي والصهيوني يشجع النهب والاستغلال من أجل مصالح اقتصادية، ولاشك أن الأهداف الاقتصادية لدولة ما تمثل في سعيها إلى تحقيق ازدهارها الاقتصادي في علاقتها بالدول الأخرى، وعلى حساب دول أخرى، وبالنسبة للنموذج الغربي الحالي فإن الولايات المتحدة الأمريكية ركزت أهدافها الاقتصادية في المنطقة العربية لنهب ثرواتها واستغلال مواردها، والتدخل عسكريا إن اقتضى الأمر من أجل حماية مصالحها النفطية كما يمكن أحيانا إلى اتباع أسلوب المناورة والضغط الاقتصادي (مجلة الوحدة العدد 74).

إن سياسة أمريكا العدوانية تجاه الأقطار العربية هي سياسة السيطرة على ثروات شعوب أقطار الشرق الأوسط، وتركها تابعة أطول فترة ممكنة للشركات الأمريكية الاحتكارية وللمستثمرين الأجانب، وعبر استراتيجية المساعدات وتقديم القروض، وذلك لقطع الطريق أمام كل مبادرة هادفة إلى خلق تنمية مستقلة في المنطقة.

وبذلك، فإن الولايات المتحدة الأمريكية ستحقق الحفاظ على الوضع الراهن لاقتصادها ولمصادر قوتها التكنولوجية، والسير العادي لآلاتها ومعاملها، كما سترفع من مستوى النمو غير المتكافىء الذي وصلت إليه إلى حد أصبح الإنتاج يفوق احتياجاتها، والحفاظ على رؤوس الأموال المتمركزة بين أيدي الشركات المساهمة الكبرى التي تسيطر كلية على الاقتصاد الأمريكي، ودعم الأساليب التكنولوجية الحديثة التي تعتبر العامل الأساسي ضمن لرأس المال الأمريكي البقاء والازدهار. والملاحظ أن هذه الأهداف الاقتصادية، غالباً ما ترتبط بالاستراتيجية الأمريكية عالميا وبدورها في النظام الدولي. يحلل المناضل بن بلّة هذا الارتباط بالاستراتيجية الأمريكية والنظام الدولي وخضوعنا نحن العرب له بقوله: إن التناقض الرئيسي المتمثل في النظام الرأسمالي الغربي والتبعية التي يخضعنا لها، فلا يترك لنا سوى حياة فقيرة وضيعة، لذلك يتحتم علينا رفع هذا الرهان عنا، وأمّا التناقض الثاني، العقبة التي ينبغي تجاوزها فيتمثل في الأنظمة

السياسية الإسلامية المتواطئة مع الغرب، إن في التبعية والاغتراب الناجم عنها قهر لشعوبنا، فالإمبريالية تحتاج إلى عملاء محليين لكي يمكنوها من السيطرة على الشعوب، وهذا ما يحتويه ملف الفضائح الكبرى لهؤلاء العملاء، من سرقة أموال، وهدر هائل للإمكانات المادية والبشرية، وشلّ لطاقاتنا، وتهجير للقدرات الإبداعية من ربوعنا، وتجميعها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، إن وظيفة الخدم التي تلتصق بجلودنا قد ارتضاها حكام المسلمين لكي يبنوا أوكارهم وأوكار أنصارهم على حساب بلدانهم وشقاء شعوبهم، (آراء ومواقف).

ومنتهى العار وجود مبلغ 121 مليار دولار من الأموال العربية، حسب تقديرات مصرف «تشيز منهاتن» كودائع في مصارف غربية، يملك اليهود معظمها، أو تخضع لنفوذ «اللّوبي» الصهيوني أقوى الجماعات الضاغطة في أمريكا، يضاف إليها على ما أعتقد المساهمة المالية الضخمة لعدد من البلدان العربية والإسلامية في رأس مال الشركات المتعددة الجنسية أمثال، «فيات» و «مرسيدس» و «لوكهيد» ومشاركة هذه البلدان في الأعمال القدرة التي تمارسها الرأسمالية العالمية في مختلف أنحاء العالم. (المصدر نفسه، ص 12).

أمّا الخروج من هذا المأزق في رأي بن بلّة، مأزق النهب والاستغلال والتبعية لا يتأتى إلاّ بوجود تنمية بديلة تحقق الاكتفاء الذاتي في الداخل وتبادل الفائض مع أقطار المنطقة تتكاثف جميع

السواعد الوطنية لبنائها وفي الوقت نفسه مقاومة الفساد المشترك في البلاد العربية ومحاربة أجهزة القمع في الدولة وعملاء الاحتكارات، فيقول: «إنه يجب علينا أن نبحث عن نمط من التنمية يولي الزراعة عناية خاصة، وأن نختار صناعة خفيفة توفر فرصاً للعمل، بغية بناء اقتصاد متكامل، متمركز محلياً، ومرتبط بالسوق الداخلية من أجل تأمين الحاجات الأساسية للمواطنين، تلك هي الخطوة العريضة لتوجه يرمي المرحلة الأولى إلى التخفيف من النتائج السيئة الناجمة عن التبعية والقمح المستورد الذي أصبح سلاحاً فاعلاً في يد الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي غضون ذلك، يتعين علينا أن نستوعب المنجزات الصناعية الضخمة، ونتمثلها بروية وحذر شديديْن، فالمطلوب أولاً زراعة قادرة على سد حاجاتنا الأساسية، باستثناء عناصر لا تقل عن الأرض والماء أهمية وحيوية، ألا وهي السواعد الضرورية للعمل في الأرض ووقف النزوح من الريف الذي يتفاقم أمره اليوم، معتمدين في ذلك على الأبحاث العلمية الطموحة التي ما أن ترسى قواعدها حتى تأخذ في التطور لتوفر لنا الأدوات الملائمة لنا في ميدان التصنيع، أدوات تكون وليدة إبداعنا ومهاراتنا نحن، لا مجرد منّة من الأجنبي، يتعلق الأمر إذن بتغيير منحى الثقافة والتعليم بوجه عام والتوجه نحو تحقيق ثورة ثقافية حقيقية تكون لخدمة الإنسان الذي اختاره الله ليكون خليفته في الأرض.

هذا الأمر الذي تعرضنا له مختصرين ينبغي أن يتكامل على المستوى الاجتماعي، وأن يرمي بجملته إلى إقامة مجتمع عادل

ينطوي على إحساس عميق بالمصير المشترك وينسج بين النساء والرجال وبين الشيوخ والأطفال والعجزة شبكة متينة من التعاون والتضامن، ليفضي أخيراً إلى مجتمع من غير ربا، أي لا استغلال فيه، ويتكامل على الصعيد الخارجي بانتهاج سياسة حازمة معادية للإمبريالية وعاملة في سبيل المستضعفين "آراء ومواقف".

• مسألة الجوع

لاشك أن الذي لا يمتلك غذاءه لا يمتلك حريته، فالإنسان يستطيع أن يعيش محروماً من أي شيء باستثناء الطعام والماء، ومن ثم فلم يعد الاهتمام بالمشكلة الغذائية في العالم شأنا محصورا أو مقصوراً على المتخصصين في التغذية أو الزراعة أو التنمية، بل أضحى منذ وقت غير قصير شأنا أخلاقيا ومصيريا يهم المفكرين والمسؤولين والرأي العام والمهتمين بقضايا حقوق الإنسان، ففي المؤتمر الأول للأغذية الذي عُقد عام 1963 أعلن: «إن استمرار الفقر وسوء التغذية أمر لا يمكن قبوله من الناحية الأخلاقية والاجتماعية، وهو أمر يتعارض مع كرامة بني الإنسان وحقهم في تكافؤ وتكافل الفرص، كما أنه يهدد الأمن الاجتماعي على المستوى العالمي» الوحدة العدد 84.

وعلى الرغم من مز الجهود المبذولة فأن المشكلة ماتزال قائمة بل تتفاقم، وفي حين كانت البشرية طموحة لتجاوز ظاهرة الجوع

المهينة ومحوها من عصرنا الراهن وطَيِّ صفحات ذكرياتها السوداء من التاريخ، نجد أن هذه الظاهرة مستمرة في التنقل والانتشار بين آسيا وأفريقيا بشكل خاص، وفي مناطق أخرى من العالم بشكل عام، وبلغ عدد الذين يقضون سنويا بسبب الجوع الملايين في حين أن الدول المتقدمة تخزن أو ترمي في البحر أو تطعم الكلاب والحيوانات ملايين الأطنان من الأغذية.

يقول بن بلّة: «وفي حين يخيم شبح الجوع على أعداد لا حصر لها من أبناء العالم الثالث مقتطفا ضريبة فادحة من الأرواح البشرية، نرى مخزونا هائلاً من السمك المطحون الذي جرى اصطياده على طول شواطىء العالم الثالث، وخصوصا على شواطىء البيرو، يقدم للحاشية في النصف الشمالي من الكرة الأرضية في هذا الجزء السرطاني المترف والمتخم من العالم، بدلاً من العمل على وقف الترف الناجم عن الافتقار إلى الاعتمادات المالية اللازمة لتطوير الأبحاث العلمية الهادفة إلى إزالة الروائح الكريهة المنبعثة من السمك المطحون وجعله مادة غذائية.

وما دام ثمة عالم بأسره يئن من الجوع، فمن الاجرام أو بمكان الاستمرار في تزويد تلك الآلة الجهنمية السالفة الذكر بالوسائل التي تسمح لها بمواصلة أعمالها الشريرة» (آراء ومواقف 26).

وفي الوطن العربي تعتبر مشكلة الجوع إحدى أبرز مظاهر الأزمة الاقتصادية في الوطن العربي، وعلامة من علامات فشل السياسات الاقتصادية والتنموية العربية.

والمفارقة المثيرة هي أن معظم الأقطار العربية زراعية بالأساس وكان من المنتظر أن تحقق الاكتفاء الذاتي - على الأقل - فيما يخص الموارد الزراعية، وخاصة بعد أن تم اكتشاف بحيرة العالم النفطية في أرضه، فبدلا من أن تساعد العائدات النفطية في إقامة تنمية زراعية متطورة ساهمت العائدات في وأد الزراعة وقتلها لسببين، الأول هجرة الفلاحين من مناطقهم الزراعية إلى مناطق النفط، وتحولوا إلى سخرة لشيوخه، والثاني تدفق أموال النفط على البنوك الأجنبية والشركات الاحتكارية، فإذا بالزراعة عالة على غيرها حتى في هذا المجال من حيث اللحوم والحبوب والفواكه.

فمسألة الغذاء في مواجهة الجوع تتطلب معالجات راهنة وملحة لأنها تمس العيش اليومي لفئات واسعة من السكان. وكل تأجيل في إيجاد حلول ناجعة لها سيؤدي إلى استفحال الظاهرة وقد يقود إلى نتائج اجتماعية وسياسية انفجارية لا يمكن التنبؤ بها، إن الاقتصادات العربية مطالبة اليوم بإقامة أسس إنتاج ذاتي اكتفائي في ميدان الغذاء وبمضاعفة الإنتاج الحالي النباتي منه والحيواني عشرات المرات مادام الأمن الغذاي مكوناً أساسياً من مكونات الأمن القومي.

يرى بن بلّة أن الحلّ لهذه المسألة يكمن في مواجهة الإمبريالية، وذلك بالكف عن دعمها ودعم شركاتها بالأموال العربية، والتصدي لهذه المشكلة التي تهدد مستقبلنا والاستفادة

من الإمكانات المادية والبشرية المتوفرة وخاصة النفط ووقف عمليات إتلافها وهدرها، ولابد من ضبط هذه الطاقة الجديدة دون تنكرها للطاقة الروحية الأساسية، ذلك التنكر المتمثل في الركوع أمام إله آخرهو إله الدولار مع ضرورة عودة الأموال التي تسهم اليوم في ترسيخ تبعيتنا وتقييدنا بالسلاسل والأغلال.

يؤكد المناضل أحمد بن بلّة، على أن الغاية المرجوة من عملنا هي التصدي للمشكلات الكبرى التي ينوء بثقلها حاضرنا، والتي تهدد مستقبلنا وكان قادراً على تحرير الرجل والمرأة من مختلف المعوقات التي تذلهما وتحقر شأنهما، تلك المعوقات التي تحمل أسماء مختلفة مثل الإمبريالية والاستعمار والاستعمار الجديد والتخلف والعنصرية. وكذلك الإبادة الجماعية التي لاتزال ترتكب إلى يومنا هذا ضد هنود أمريكا والتي تكتمل الآن فصولها باغتيال هوية هذا الشعب وتدمير ثقافته، إن تلك الواقعة وحدها كافية لطرح علامات الاستفهام حول شرعية الحضارة الغربية التي أبصرت النور مع اكتشاف أمريكا، ولتبقى وصمة العار التي تلطخ وجه تلك الحضارة، فلنكف إذن عن تدعيم الإمبرالية التي نسهم معها في شركات مثل «كراب» و «مرسيدس» و «فيات» و «لنزهو»، ولنوقف سيل الدولارات العربية والإسلامية المتدفقة كموجة ماجنة دنسة على القصور وحانات اللهو، ونوادي القمار والتعري في الغرب، ولنحول شيئا من النفط والغاز إلى بروتين، إلى غذاء غني لعالم جائع، قطعا لدابر الجوع ورفعا لمستوى الذكاء

عند البشر، وإرهافا لإحساسهم بالجمال، تعزيزاً لإيمانهم بالله، فلقد «كاد الفقر أن يكون كفرا» حسبما يقول الحديث الشريف (آراء ومواقف ص 22-23).

فإذا كان من المؤكد أن جانباً كبيراً من الجوع الحاصل اليوم في كثير من أقطار الوطن العربي يعزى إلى السياسات الاقتصاديةالعربية القطرية والتابعة، فأن تجاوز هذه المشكلة يتطلب التفكير الجدي في مطلب التكامل الاقتصادي العربي، وذلك بأحياء الاتفاقات والمعاهدات المبرمة في هذا الإطار وإعادة النظر في محتواها في ضوء المتغيرات الدولية والقومية الراهنة من أجل تحسين بنودها والعمل على تطبيق مواثيقها خدمة لاقتصاد غذائي عربي يكفل لأبناء الوطن العربي الحدود الدنيا للعيش الكريم.

أحمد بن بلة

أو الارتباط العضوي

بين السياسي والخلقي



إن الاهتمام بشخصية سياسية كشخصية أحمد بن بلة يستمد مشروعيته لكونه من القادة القلائل في العالم الثالث الذين ارتبط عملهم السياسي بالبعد الخلقي. إن السياسة وإن كانت ضرباً من تسيير ما هو ظرفي فإنها مع ذلك، عند بن بلة، مشروطة بمعايير وتحددها مبادىء. هذه المبادىء تتمحور عنده في إشكال أساسي: أين تكمن المصلحة الشعبية وبالضبط مصلحة الفئات العريضة؟ فكل مواقفه وأفكاره طيلة مسيرته النضالية الطويلة يشدها هذا الهاجس، المصلحة الشعبية، الذي يقتضي الارتباط بالجماهير وقواها الحية وتلمس مشاكلها ومطامحها. ولأنها كذلك تظل أصيلة تفرض الاحترام حتى عند الخصوم أو حتى عندما تسيء التقدير. هذا السلوك يقتضي في نظرنا نوعاً خاصاً في تناول

الأمور أي المقاربة النقدية أو التي ترجح دائما الجانب النقدي الذي يسمح بتجاوز المكتسب أي بالتطور والاغتناء. لذلك نجد عند بن بلة هذا العمق النقدي باستمرار وهذه الحالة الوجودية والفكرية التي ترتاح لما هو مكتسب، وهو في ذلك لا يستثني نفسه إذ غالبا ما يقوم بمحاسبة ذاتية لتجربته الثورية. أعتقد أن هذا الحس النقدي يجعل كل من حظي بامتلاكه في موقف معرفي ممتاز ومحظوظ يعطيه إمكانية الفهم الأعمق، وبالتالي النهج الأسلم والأقل ضرراً.

لذلك يبدو لنا أن أية قراءة جدية في مواقف وأفكار هذه الشخصية لا تستقيم إذا لم تدرك هذه الإشكالية الضابطة: الارتباط القائم بين السياسي والخلقي المبدئي في فكر بن بلة وممارسته السياسية. وسنحاول في هذا الباب تقديم هذه الشخصية المناضلة أن نتلمس هذه العلاقة وما تخلفه من مواقف تدفع دائما إلى "أقصى ما يمكن" من خلال بن بلة والتجربة الجزائرية وبن بلة والنظام العالمي القائم.

أ- بن بلة والتجربة الجزائرية

عندما نعت أحمد بن بلة بأنه أحد مؤسسي الثورة الجزائرية فضل أن يطلق عليه أحد قادة ومنظمي فاتح نوفمبر 1954. (انظر ص 197 من كتاب مسيرة ITINERAIRE البديل 1987 بالفرنسية).

ذلك أن هذه الثورة هي، في نظره، ثمرةعمل سياسي جماعي لشعب بكامله. فهي تشكل نقطة تحول لعملية نضج سياسي طويل واكبه نضال استمر زهاء 28 سنة؛ من سنة 1926 إلى 1954 . إن المسؤول التاريخي لفاتح نوفمبر هو الاتجاه الفكري الذي نشأ داخل الفرع الجزائري لـ "نجمة المغرب العربي" (التي تأسست سنة 1926) والذي ترعرع بعد ذلك داخل حزب الشعب الجزائري الذي أسسه سنة 1937 مصالي الحاج منشط محجة المغرب العربي بالجزائر منذ 1926. فهذا الاتجاه هو الذي زرع في أرض الجزائر فكرة الاستقلال والحرية. "هذه الأرض لا تباع" جملة واحدة صاح بها مصالي الحاج وحفنة من التراب أشار بها أمام جمهور في مهرجان نظم بالجزائر كانتا كافيتين لتأليب حماس الجماهير الحاضرة وتدشين بداية عهد جديد يتجاوز الطرح الاندماجي المطالب بالجنسية الفرنسية الذي كانت تقول به قوى سياسية أخرى. هذا الفضاء الفكري والسياسي الرافض للاستعمار والاستغلال والمهانة هو الفضاء الذي تستسيغه عقلية ونفسية أحمد بن بلة، لأنه نابع من أعماق الذاكرة الجماعية لشعب يرفض الذل والاستعمار، ولأنه ترعرع فيه وشب عليه: «عندما كنت طفلا في السادسة من عمري تقريبا اندلعت انتفاضة عبد الكريم الخطابي ضد إسبانيا وفرنسا وكنا آنذاك نسمع الأغاني المؤيدة لها، أتذكركيف كانت فرحتنا تزداد بازدياد عدد القتلى في صفوف الأعداء» (ص 16 نفس المصدر السابق) هذا الموقف سيلازمه طيلة حياته، فهو يعترف صراحة بأنه بعد أكثر من 60 سنة

على مرور هذه الانتفاضة يظل في داخله «ذلك الطفل الذي في كل مرة ينهزم فيها الاستعمار الغربي يشعر بفرحة تتناسب واندحاراته» (نفس المصدر ص 77).

هذا الانتماء الثابت لجانب الدفاع عن الحرية والمساواة والعدالة هو الذي جعله يتعاطف مع حزب الشعب الجزائري وينخرط فيه لمجرد تخليه عن الجندية ليصبح واحداً من أبرز أطره. ذلك أن هذا الحزب بقيادة مصالي الحاج كان أول من نادى باستقلال الجزائر وأدمج بالتالي العمل السياسي في الإطار الصحيح. فالمطالب الاندماجية ليست كافية موضوعيا لاستيعاب واحتواء طموحات الجماهير التواقة إلى الحرية. كما أنها غير مقبولة من الاستعمار الفرنسي المبني على الامتيازات المخصصة لمليون ونصف من المعمرين المسلحين والمصممين العزم على الدفاع على امتيازاتهم بجميع الوسائل. فلقد برهنت الأحداث - التي من بينها رفض الجبهة الشعبية (التي كانت مكونة من اليسار الفرنسي) لهذه المطالب - بأن طبيعة الصراع القائم آنذاك لم تكن تسمح بأي اختيار سوى اختيار الاستقلال والحرية.

غير أن شعار الاستقلال إن كان ضروريا وشكل في المراحل الأولى اختياراً ثوريا، فإنه أصبح غير كافٍ؛ إذ بمجرد ما التحقت القوى المنادية بالاندماج بركب المنادين بالاستقلال وتوسعت الحركة المطلبية، قامت سلطات الاستعمار بحملات الاعتقال والإرهاب والتقتيل الجماعي كما وقع سنة 1945 بمدن عدة مثل: سطيف

وخراطة وكَالمة حيث سقط آلاف الشهداء مما أبان أن السلطات الاستعمارية لم تكن تقبل فكرة الاستقلال ذاتها وبالتالي لم يكن بإمكانها فسح المجال بشكل كامل للنضال السياسي في إطار المطالبة بالاستقلال والحرية ولو بالطرق السلمية. برز إشكال آخر يتعلق بطبيعة الوسائل النضالية لبلوغ هذا الهدف. أي أصبح من الواضح أن استعمال الوطنيين للوسائل غير العنيفة، لمواجهة عنف الاستعمار، يجب أن يراجع وأن يقع التفكير في مواجهة العنف بالعنف. وإذا كان حزب الشعب الجزائري قد اختار بعد أحداث 1945 الازدواجية بخلق حزب موحد تحت اسم الحركةمن أجل انتصار الحريات الديمقراطية الذي سيعمل في إطار "الشرعية" من أجل إقامة مجلس تأسيسي وخلق أداة موازية سرية تحت اسم "التنظيم الخاص"، فأن بن بلة سيتولى قيادة هذا التنظيم بعد السيد بن بلويزداد وآيت أحمد.

فأمام هذين التوجهين الذين يبدوان متكاملين لكنهما في العمق وعلى المدى المتوسط والبعيد متعارضين، كان موقف بن بلة العمل في إطار التوجه الثاني مدركاً أن تحقيق الاستقلال لا يمكن الوصول إليه عن طريق بطاقة الانتخاب. ولقد أبانت الانتخابات الجمعية الجزائرية التي أجريت سنة بعد الانتخابات البلدية أن الإدارة الاستعمارية لم تكن مستعدة أمام المد الجماهيري الكاسح المؤيد للحركة من أجل انتصار الحريات لإجراء انتخابات نزيهة. فعمدت إلى التهديد والاعتقال والإرهاب والتزوير مما عزز موقف

الاتجاه الذي يفكر في الاستعداد للمقاومة المسلحة، وقررت اللجنة المركزية للحزب في اجتماع لها سنة 1949 تقوية دور التنظيم الخاص السري. لقد ناضل بن بلة وباستمرار من موقع البحث عن التجاوز الممكن، أي من موقع العمل على أن تحتفظ الثورة على جدليتها وذلك بالمراجعة المستمرة لخطها ومحطاته الرئيسية.

ب - بن بلة والنظام العالمي القائم

إن بن بلة يدرك أهمية دور النظام العالمي القائم وثقل تأثيره على البلدان والشعوب وعلى اختياراتها وتوجهاتها، لذلك حاول في عدةمناسبات التطرق إليه لتحليل مضمونه وكيفية فهمه والحكم على تاريخه وكيفية مواجهته. نخص من بين هذه المناسبات الحديث الذي أجري سنة 1985 والمنشور ضمن كتاب "المسيرة" بالفرنسية وكذلك مقالات أخرى "حول الحوار شمال جنوب" و "أي علم للجنوب؟ تعاون أم مواجهة" و "في الاقتصاد الليبرالي"...

ينظر بن بلة إلى النظام العالمي القائم على أنه نظام متماسك له منطق خاص نابع من أصول فلسفية وله نشأة وله اقتصاد من طبيعة خاصة وله مفاهيم

إن النظام العالمي حسب بن بلة هو تحت هيمنةالغرب وخطى خطواته الأولى مع احتلال أمريكا سنة 1492 الذي تواكب مع سقوط غرناطة. منذ ذلك التاريخ، انتهت الهيمنة السياسية

للإسلام وقام نظام جديد هو النظام الرأسمالي، وهو نظام مبني على فكرة أساسية بسيطة وهي "الربح وبأي ثمن وبأية وسيلة"؛ أي الاستغلال والسيطرة والعنف والقهر.

فتاريخه مقترن بحرب الإبادة التي طالت الهنود الأمريكيين وأسواق الرق لمائة مليون إفريقي وبالظاهرة الاستعمارية التي شملت جميع مناطق العالم والتي خلفت آثاراً سارية المفعول كما اقترن بتلوث البيئة الطبيعية من ماء وهواء وتخريب للموارد الطبيعية إلخ...

هذه السلبيات هي في نظر بن بلة تشكل حلقات لسلسلة واحدة مرتبطة بمنطق وحيد هو منطق النظام الدولي الذي يفرض مباشرة أو غير مباشرة هيمنته.

وإذا كان هذا النظام قد أشاع العلم وغزى العالم بأدواته ورموزه فأن له مساوىء كثيرة ترجع كلها إلى استبدال القيم الإنسانية بقيم استهلاكية صرفة، مما أدى إلى تلاشي قيم مثل التضامن العائلي وتفشي أمراض اجتماعية فتاكة مثل تعاطي المخدرات والأمراض العقلية. إن الترابط العضوي بين المكتسبات العلمية وهذه السلبيات تدخل في إطار منسق منطقي، أي تطور العلوم والحضارة بالمعنى الغربي، أي حسب فلسفة الربح والاستغلال والاستهلاك من أجل الاستهلاك وتشويه العقلانية.

لذلك يقترح بن بلة مواجهة هذا النظام العالمي وذلك بعدم مسايرته وتوحيد الصفوف، إذ لا مكان اليوم للدويلات بل

للتكتلات الكبرى، وإعد د منظور شامل للحضارة بكل عمق تأخذ بعين الاعتبار جميع المعطيات، فنحن في حاجة إلى مفكرين جدد وإلى أفكار جديدة. أما بـ لنسبة للدول الإسلامية، فعليها بالإضافة إلى ذلك تأويل الإسلام ع الاهتمام بالجوهر والتغاضي على القشور وفتح باب الاجتهاد. أي باختصار، من الضروري تغيير النظام العالمي الحالي واستبداله بآخر جديد يأخذ بعين الاعتبار الإنسان بدل الربح من أجل الربح.

نقد الاقتصاد الليبرالي :

يحاول بن بلة إبراز أزمة الاقتصاد الليبرالي وينتقد الفكرة الرائجة بعد حرب الخليج وانهيار المعسكر الشيوعي والقائلة بالانتصار النهائي لليبرالية، هذه الفكرة التي يجسدها فرانسيس فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ" ذلك أن الانتصار الظاهري لإيديولوجية الليبرالية لم يدشن عهداً من السلام والرخاء لا في الغرب ذاته ولا في أوروبا الشرقية التي تعاني من أزمة اقتصادية وسياسية لم يسبق لها مثيل، فلقد تبخرت جميع الأحلام والادعاءات في فترة وجيزة. إن تناقضات النظام الليبرالي مازالت قائمة بل تزداد حدة. وبعد أن يستعرض معالم أزمة الاقتصاد الليبرالي وآثاره السلبية سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو أوروبا الشرقية والعالم الثالث، فأنه يخلص إلى أنه «إذا كانت الأزمة عميقة ودائمة في الشمال وفي الجنوب فإنه لا

علاج لها وذات أبعاد متعددة، فهي تشمل جميع المجالات وتتجه ليس إلى "نهاية" تكون نهاية التاريخ وإنما إلي نهاية مرحلة تعسة من تاريخ الغرب المطبوعة بالرأسمالية الليبرالية»، ويستشهد في ذلك ببعض الأصوات التي أصبحت تشكك أو تدين الاقتصاد المبني على النظام الليبرالي، أمثال "جون كينيت غالبرايت" و "هيزيل هندرسون" في كتابه "نهاية الاقتصاد" و "فرانسوا بارتون" و "روني باسي" الذين أبانوا عيوب علم الاقتصاد هذا الذي لا يهتم سوى بالأرقام ويهمل الأحياء. إن عيب الرأسمالية كونها تعتمد على فكرة مشوهة، ألا وهي فكرة التنافس أي الصراع بين البشر وبين هؤلاء والطبيعة الذي أصبح ... مقدساً من أجل "مصلحة" الجميع. فهذا المفهوم توسع ليغزو علوماً مختلفة مثل الاقتصاد وعلم الاجتماع والفلسفة والأنتروبولوجية من خلال كتاب "لوك"و "هوبز" و "مالتوس" و "أدام سميث" و "داروين".

نقد مفهوم التنمية

إن النظام القائم يعتمد على مفاهيم غامضة ومضللة مثل مفهوم التنمية والتخطيط والإنتاج، وهي مفاهيم يجب تدقيقها وإعطاؤها المضمون الحقيقي (ص 205).

«إن كلمة التنمية ذاتها مرتبطة بالأسس الثقافية التي صاغتها والتي هي التعبير ذاته للمقاربة الفكرية الغربية. وفي

نهاية المطاف تكون التنمية حسب هذا التصور الفكري هي الدخل الوطني الخام (PNB)، وبصفة أكثر عمومية هي السيطرة المطلقة لكل ما هو قابل للعد والقياس. هذه المقاربة هي قررت أن تكون الرياضيات هي علم العلوم وأن يختزل علم الاقتصاد كل العلوم (ص 206).

إن كلمة تنمية تحيل إلى نسق ابستيمولوجي ولا تنفصل عنه وتعبر عن معناه العميق. فهي وليدة مسيرة فكرية طويلة: العقلانية التي أسسها ديكارت والتي وسعها هوبز في أعماله خاصة "التنين"، حيث يوظف المنهج العلمي لكل من بيكون وديكارت في دراسة النوع البشري. فبالنسبة لهوبز، في المجتمع "ينتصر العنف على... ولدى الإنسان تحتل الغريزة محل الذكاء". ومن المؤكد حسب بن بلة أن جميع النظريات السياسية أو الاقتصادية قد ارتوت بطريقة أو بأخرى من هذا المنبع.

وباختصار، إن التنمية كما يتصورها الغرب هي فخ. ماذا ننتظر من تنمية تقضي سنويا على 17 مليون هكتار من الغابات وتثقل الجنوب بالديون إلخ...

كذلك الشأن بالنسبة للتخطيط. يجب أن نخطط ماذا؟ هل يجب أن نخطط لتنمية تؤدي إلى هذه النتائج الكارثية؟ أم يجب أن نخطط لشيء آخر، أي لمفهوم آخر للتنمية تنبع من تأمل آخر ومن أسس فكرية أخرى.

وإذا كانت الاشتراكية التي طبقت في العالم العربي خاصة من خلال التجربة الناصرية لم تؤت أكلها بشكل كامل، فأن ذلك يرجع مما يرجع إليه إلى:

1 - أنها طبقت في أحضان النظام العالمي ولم تحقق القطيعة مع عقلانيته المركنتيلية وقوانين السوق.

2 - أن هذا النمط من التنمية مستورد وليس وليد عبقريتنا الخاصة، إنه من فضاء ثقافي غربي نابع من المقولات الفلسفية والوجودية المبنية على مبدأ "الكم "QUANTUM".



أحمد بن بلة

التحولات الإيديولوجية

لفكر يسعى إلى معانقة الواقع



يشكل التطور الفكري للسيد أحمد بن بلة إحدى أكبر مظاهر التحول في حياته. فالشخص قد بدأ في صفوف جبهة التحرير مناضلا وطنيا عاديا، ثم عانق النزعة الثورية الماركسية باتجاهها المناهض للغرب ولنزعته الاستعمارية، وبدعوتها إلى التحرير الكامل والشامل (اقتصاديا وسياسيا وثقافيا) لدول العالم الثالث، وبملمحها التحرري على الصعيد القومي العربي؛ وأخيرا انتهى بعد تجربة طويلة مريرة جمعت بين المعاناة الشخصية والتتبع المؤلم لتطور تجارب العالم الثالث، إلى اتخاذ موقف تحرري وطني في إطار ثقافي جديد هو الإسلام.

قد يقول قائل بأن هذا المسار دليل على عدم استقرار الرأي، وعلى التقلب والتحول، ومن ثمة فأنه يفقد كل قيمة حجية أو نقاشية. لكن الجواب هو أن هنالك نوعين من التحول الفكري الذي يلحق الأشخاص: تحول انتهازي وتحول تاريخي.

التحول الانتهازي هو التحول المجاني الذي يصيب ذهن ووعي شخص متغير متقلب، يلهث وراء مصلحة شخصية، ويتقلب هنا وهناك ويلعب على كل الحبال مطاردة لهذه المصلحة. فهذا الشخص يغير اختياراته الفكرية والإيديولوجية مثلما يغير ملابسه أو نظارته. فالأصوب هو ما تلاءم مع مصلحته الشخصية أو الفئوية الضيقة. ومن المؤكد أن هذا النوع من التحول ذو طابع سلبي وانتهازي.

لكن هناك نوعا آخر من التحول، ناتجا عن التعلم وعن قراءة أحداث التاريخ، وفك رموزه، وهذا الموقف يدفع بصاحبه إلى الإنصات لنبض التاريخ ولحركة الواقع ويوقف فكره واختياراته تبعا لذلك. فهو بالتأكيد ليس شخصا دوغماتيا يتخذ لنفسه منذ البداية أصناما من الأفكار يرددها ببغاويا ضداً على حركة الواقع نفسه، ولكنه بمقابل ذلك ليس مسوق أفكار الموضة وراكب علامات الموجة، بل إنه، وهذا هو حال أحمد بن بلة، بمثابة البحاثة أو المستكشف أو المرتاد Conquistador الذي تتغير ملامحه وأفكاره كلما اكتشف حقيقة جديدة. إن وعيه التاريخي هو الذي يوجهه وليس وعيه الإيديولوجي المسبق هو الذي يسكنه. إنه في إنصات مزدوج لحركة التاريخ ولوقع الفكر. اشتهر أحمد بن بلة، وهو يمارس مسؤولية القيادة بكونه أحد قادة العالم الثالث الداعين إلى التحرر الكلي من رواسب الاستعمار فناضل مع قادة العالم الثالث: عبد الناصر وغيفارا وتيتو وكاسترو وموديبوكيتا

ونيكروما والقذافي وغيرهم لنصرة قضايا العدل على المستوى الدولي والوطني وتبنى ما يمكن تسميته اليوم بأيدلوجيا العالم الثالث ذات النفحة التحررية المناهضة للاستعمار. وكان من رواد تطبيق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والتسيير الذاتي والتحرر الاقتصادي، وخطط التصنيع الثقيل في بلده.

لقد كانت هذه الفترة هي فترة نهوض دول العالم الثالث بعد حصولها على الاستقلال السياسي، من أجل إقامة نظام عالمي جديد قوامه الحياد الإيجابي بين المعسكرين المتناحرين آنذاك: العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي، لكن في ميل واضح نحو استلهام التجربة الاشتراكية الدولية آنذاك. لكن الاستعمار والامبريالية ظلا بالمرصاد لهذه الحركة الأممية الثالثية الجديدة إلى أن تم لهما إحكام السيطرة من جديد على دول العالم الثالث إما بالانقلابات الرجعية، أو بالتآمر أو بالتسلل الاقتصادي أو بالمعونة المالية إلى غير ذلك من الوسائل.

لقد كانت الفترة الممتدة بين الخمسينات والثمانينات من هذا القرن فترة ازدهار هذه النزعة الثالثية التحررية، وكان أحمد بن بلة من أبرز رموزها. وفي هذه الفترة أيضا كانت التجربة الجزائرية نموذجا لتجربة ثالثية مناهضة للاستعمار ونموذجا لمحاولة رائدة في التحرر الاقتصادي والسياسي وبناء الدولة العصرية المتحررة، خاصة وأن هذا البلد كان قد احتل صبغة المثال في محاربة

الاستعمار الفرنسي بثورة المليون شهيد التي قدمتها إحدى أكبر تجارب مقاومة الاستعمار في العصر الحديث.

يوثر السيد أحمد بن بلة أن يدعى بالمناضل الثوري الثالث بدل هذه الصفة التي ألصقت به خلال تجربة سنتين ونصف من الحكم. فتجربته النضالية وتراثه الثوري أثرى وأغنى من ذلك بكثير إذ يمتد إلى أكثر من 54 سنة من النضال قبل وبعد تجربة الرئاسة هاته. وإذا كان لهذه الفترة الرئاسية من أهمية فهي أنها كانت فرصة لاختبار الأفكار الثورية على صعيد الواقع، ومناسبة لتطبيق هذا الحلم الثوري الذي شد على فكر أحمد بن بلة طيلة كل هذه الفترة الطويلة من النضال. ولعل تجربة الحكم وتجربة السجن كانتا بمثابة مصهرين اختباريين، الأولى لاختبار مدى صلاحية الأفكار الثورية التحررية للتطبيق العملي، والثانية لمراجعته مرة لهذه الاختيارات الفكرية والمذهبية. وقد شكل السجن فترة تأمل قاس في مدى صحة المقدمات النظرية، وأتونا اختباريا لمدى صلابة هذه الأفكار نفسها. إن قسوة هذه الفترة وظلاميتها وانسداد الآفاق فيها جعلت هذا المناضل يرتد إلى بنيته الثقافية القاعدية التي يمثلها الإسلام ليؤصل فيها قواعد التحرر وإمكانات التقدم.

فالعودة إلى الإسلام هي عودة إلى المنبع الثري وإلى الإلهام الروحي العظيم الذي يمثله الإسلام بقيمه المثلى في الدعوة الى العدالة الاجتماعية، واقتسام خيرات الأرض بين بني البشر، وإلى الشورى منهجا للحكم؛ وككل التراثات الثقافية البشرية فإن

التراث النظري والعملي الإسلامي يضم الإيجابي والسلبي إذ أن فيه نماذج مشرقة بالدعوة إلى العقل، وارتياد مجاهل الطبيعة، وإقامة القسطاس العادل بين الناس، والتوزيع العادل للثروات والإمكانات، ونماذج من العدل الاجتماعي، لكنه بنفس الوقت يضم أشكالا من الاستبداد والتعصب والظلامية. وأحمد بن بلة، وهو يمارس عملية غربلة وفحص لهذا التراث وجد نفسه في النهاية منحازا كليا إلى الجانب التنويري والعقلاني المشرق من التراث الإسلامي.

وهذا النفس الثوري الإسلامي سيتزاوج مع تراث أو إرث آخر هو الفكر التحرري الثالثي الذي كان هو نفسه أحد أبطاله التاريخيين. فتحقق بذلك في فكر الرجل تزاوج موفق بين النزعة الثورية الإسلامية والنزعة الثورية الحديثة. وفي هذا الإطار يجب أن تفهم عودة أحمد بن بلة إلى التراث الإسلامي. هذ العودة التي تبدو للبعض وكأنها ارتداد أو نكوص هي في النهاية مصالحة بين ما هو مشرق في تراث ماضي الأمة وما هو مشرق في حاضرها، تحقيقا للتواصل بين الماضي والحاضر بل توظيفا للماضي في خدمة حاضر متحرر ومتقدم وتنويري.

تنظيرا لهذه العودة، يذكر السيد أحمد بن بلة بأن الإسلام كان في الأصل ثورة في مجتمعات شبيهة بمجتمعاتنا اليوم، وفي ظروف «دولية» مماثلة لظروفنا اليوم :

1 - لقد كان العيب الأساسي الذي يطال المجتمعات في نظر الإسلام آنذاك هو الاستغلال والتفاوت بين الناس. فقد دعا الإسلام إلى المساواة بين الناس في الملك وفي المواطنة. فقريش رفضت بتاتا أن يوضع أشخاص مثل عمار بن ياسر أو بلال الأثيوبي على قدم المساواة مع الآخرين، أي كأعضاء لهم كامل الحق والعضوية في المجتمع الإسلامي.

2 - لقد غير الإسلام المجتمع القرشي وعدل القوانين والأعراف التي كانت تحكمه. فعلى صعيد الحرب مثلا حرم الإسلام القوانين الحربية في ذلك الواقع محرما محاربة الجرحى والأطفال والنساء والشيوخ، كما حرم تخريب الآبار وإتلاف الأشجار. وهكذا نجد في ذلك نموذجا جديدا لعلاقات "دولية" جديدة في الحرب والسلم مثلما نستطيع أن نرى في ذلك نوعا من الوعي البيئوي الحديث مثلا ومعيارا جديدا لعلاقة التوازن المأمولة بين الإنسان والطبيعة. وقل نفس الشيء عن تحرير العبيد وإعلان مكانة المرأة في مجتمع كان يئدها. لكن على المجتهدين والباحثين أن يكتشفوا هذا الوجه التنويري والتحريري للإسلام.

3 - لقد خلخل الإسلام «النظام العالمي» آنذاك وهو النظام الذي كانت تقتسمه قوتان كبيرتان: الفرس والرومان. فقد كان المنتصر يطلب من المهزوم أشياء لا تستساغ اليوم في عصرنا، فقد طلب ملك الفرس من غرمائه البيزنطيين فدية قوامها ألف امرأة من علية القوم. وجاء الإسلام ليضع قواعد جديدة للسلم والحرب معا.

4 - الإسلام ذو نزعة مساواتية عميقة بين البشر. وعصر الخلفاء الراشدين هو العصر الذهبي الذي طبق فيه الإسلام تطبيقا نموذجيا ما يزال إلى اليوم يشكل مثالا تاريخيا فيه. فالخليفة عمر بن الخطاب لم يتلق، كقاض وحكم بين المسلمين، أية شكاية خلال سنتين كاملتين.وعمر بن عبدالعزيز لم يعثر في طول البلاد وعرضها على أي شخص يستحق الزكاة.

وهنا لابد من الإشارة إلى إقرار الزكاة كركن أساسي في النظام الاجتماعي للإسلام. إن الزكاة كواجب ديني تهدف إلى حماية الفقير خلال سنة كاملة. كما أن فكرة الحبوس تهدف إلى تنظيم ومأسسة عملية الإحسان وتدويمها لصالح الأعمال الاجتماعية والدينية في مختلف القطاعات.

فأذا أبرزنا هذه الجوانب الاجتماعية في الإسلام، من حيث مناهضتها للاستغلال والربا، وفي تعارضها مع الرأسمالية الشرسة فأن باستطاعتنا بلورة نوع من الديمقراطية الاجتماعية والسياسية في الإسلام إذا ما طبق تطبيقا سليما.

بل إن الإسلام يستطيع اليوم أن يشكل مرجعا فكريا وإيديولوجيا لأية حركة ديمقراطية مناهضة للتفاوت والاستغلال والتسخير. ومن واجب المسلمين والفئات المثقفة أن تفتح باب الاجتهاد، وتتخلص من النزعة العقدية الجامدة والتعصب الأعمى للماضي لتنفتح على المستقبل وعلى عطاءات الحضارات الأخرى

وخاصة على الحضارة التي هي اليوم في موقع الريادة أي الحضارة الغربية.

فالرجوع إلى الماضي، واحتذاء السلف واستلهام فترة الإسلام الذهبية لا تعني أبدا قفال العين عن عطاءات العلم المعاصر، والحضارة المعاصرة. بل إن العمليتين: الرجوع إلى الماضي ومواجه المستقبل عمليتان متكاملتان بحيث تدعم إحداهما الأخرى دون أن تنفيها.

ولعل استعادةالعرب اليوم لدورهم التاريخي الماضي كحضارة رائدة تتطلب التوفيق الناجح والناجع بين عبقرية الماضي وعطاءات الحاضر.

والإسلام الذي يدعو بنبلة إلى إحيائه واستلهامه ليس هو الإسلام كما تقدمه وسائل الاعلام الغربية الحاقدة على الإسلام الذي يمثل اليوم كما شكل في الماضي قوة تاريخية وفكرية وروحية لا يمكن إهمالها.

إسلام وسائل الإعلام الغربي، إسلام حاقد عنصري، رجعي، متخلف، إرهابي وإقصائي. إنه إسلام قد على مقاس الوعي الغربي الاستعماري الذي يرفض أية قوة ثقافية منافسة من حجم الإسلام.

إن الإسلام الحق هو الدعوة إلى الحوار وإعمال العقل، والتوزيع العادل للخيرات، وإشراك الجميع في مراقبة الحاكم والحد

من سلطته، ومعانقة حركة التاريخ في صعودها نحو الأحسن. هذا هوالإسلام الحق، وهو النموذج الذي يتصوره أحمد بن بلة ويود استلهامه في تطوير حركية المجتمعات العربية المعاصرة.

وهذا الاسلام أيضا ليس هو إسلام الفئات الرجعية الماضوية التي ترتد إلى الماضي بديلا عن الحاضر، وتستخدم العنف والإقصاء كلغة وحيدة للحوار ولحل المشاكل.

ومن الأكيد أن هذه العودة إلى استلهام الإسلام المتحرر المستنير في فهم وتطوير حركة التاريخ ليست «توبة» فكرية بقدر ما تنخرط هي ذاتها في حركة الاجتهاد بدل الاقتصار على الدعوة إليه. وحتى إذا لم يكن أحمد فقيها متخصصا في المجالات الفقهية فأنه كمفكر سياسي يستطيع أن يوجه الاجتهاد الفكري - إن لم يكن الفقهي- وأن يمارسه هو ذاته انطلاقا من الضرورة التاريخية، وبغيرة على الإسلام والقيم الإسلامية لا تقل حدة عن غيرة الفقهاء. بل إن هذه الروح الاجتهادية تسهم في تكسير احتكار الفقهاء لمهمة الاجتهاد، حتى وإن مارسوها شكليا وبطريقة نصية. إنها عودة المجرب المختبر للدعوة إلى تطوير الإسلام والبحث الإسلامي والفهم الإسلامي حتى يستطيع الإسلام ذاته أن ينخرط بنجاح في حركة التاريخ المعاصر انخراطا موفقا من جديد.

إن هذا التحول الفكري من تخوم الماركسية إلى مشارف الإسلام هو نتيجة للعناء الفكري وللبحث والاجتهاد المستمر، الذي قد يطور أو يعدل قناعاته الأولى في اتجاه تكييفها مع الواقع.

وهو بالتالي أشبه ما يكون بالتحولات التي تعرفها الفرضية العلمية في تكيفها التدريجي مع الظاهرة في اتجاه تفسيرها تفسيرا أحسن وأمثل. إنه تحول تحذوه معانقة الحقيقة واحتذاء تحولاتها وأوجهها مهما بدت المسافة المقطوعة بعيدة أو مستحيلة. وتلك هي لذة اكتشاف الحقيقة ومتعة الات.. لكل امتساخاتها وتحولاتها، وللمرء فيها على الأقل شرف المغامرة والمبادرة. وهذا وحده كاف ليمحضه المر كل الإعجاب والتقدير.

المحتويات

مطبعة فضالة

3، زنقة ابن زيدون ـ المحمدية (المغرب)

الهاتف: 32.46.45 / 32.46.43 (03)

فاكس: 32.46.44 (03)

هذا الكتاب

إن حزاما من المتفجرات حول الخصر ووميضا رهيبا في العينين وإيمانا في القلب لا يتزعزع لأكثر فعالية من هذا السلاح لغسل عار الخيانة عن جبين أنظمتنا السياسية الحمقاء الغارقة في النذالة بجيوشها الحديثة البرّاقة العاجزة عن مواجهة العدوان الصهيوني على لبنان. تبأ لجبروت البترودولارات. إن هذه الانفجارات المقدسة التي أجبرت على تقهقر البربرية الصهيونية وقوات المارينز ووحدات القوات الفرنسية والانكليزية والإيطالية مجتمعة؛ ان تمزق أطراف المناضلين لحظة الانفجار المدمر الذي يصيب العدو، لهو الوسيلة الأخيرة للانسان ليؤكد صفته كممثل للّه على الأرض عندما تقفل بوجهه كل الأبواب وعندما يتحالف الجميع ضده وبالدرجة الأولى حكامه ليخنقوا فيه شعلة النور التي زرعها الله في نفسه. وهذا هو الجواب كذلك على ما تنتجه البترودولارات من الضرر ذلك أن هذه الطاقة التي يشكلها البترول ومن ناحية مبدئية البترودولارات قد تحولت لا إلى نور دافيء، بل إلى ظلام مشين وملّوث.

أحمد بن بلة

تنفيذ
المؤسسة العربية للنشر والإبداع
30 زنقة أفيسن - عمارة (ب) 2405- الدار البيضاء - (المغرب)
الهاتف :34-37-40/07-37-40 : فاكس :20-37-40